مكتبة مصر بالفجالة تقدم
من مجموعة
محمد وصحبه

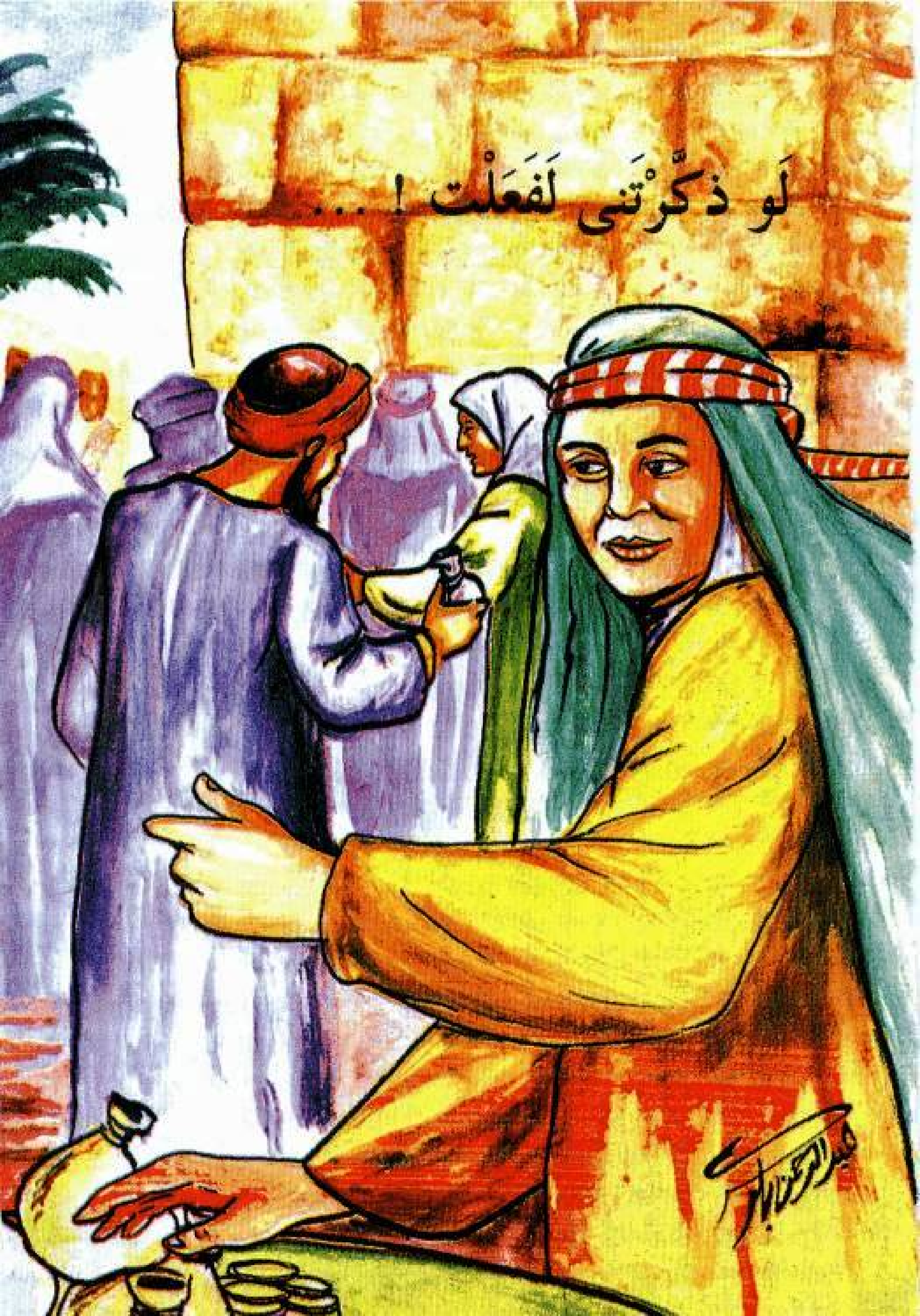
ثوب الخليفة

إعداد

أمير سعيد السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠ - فاكس : ٥٩٠٧٥٩٣


لَو ذَكَّرْتَنِي لَفَعَلْتُ ! . . .

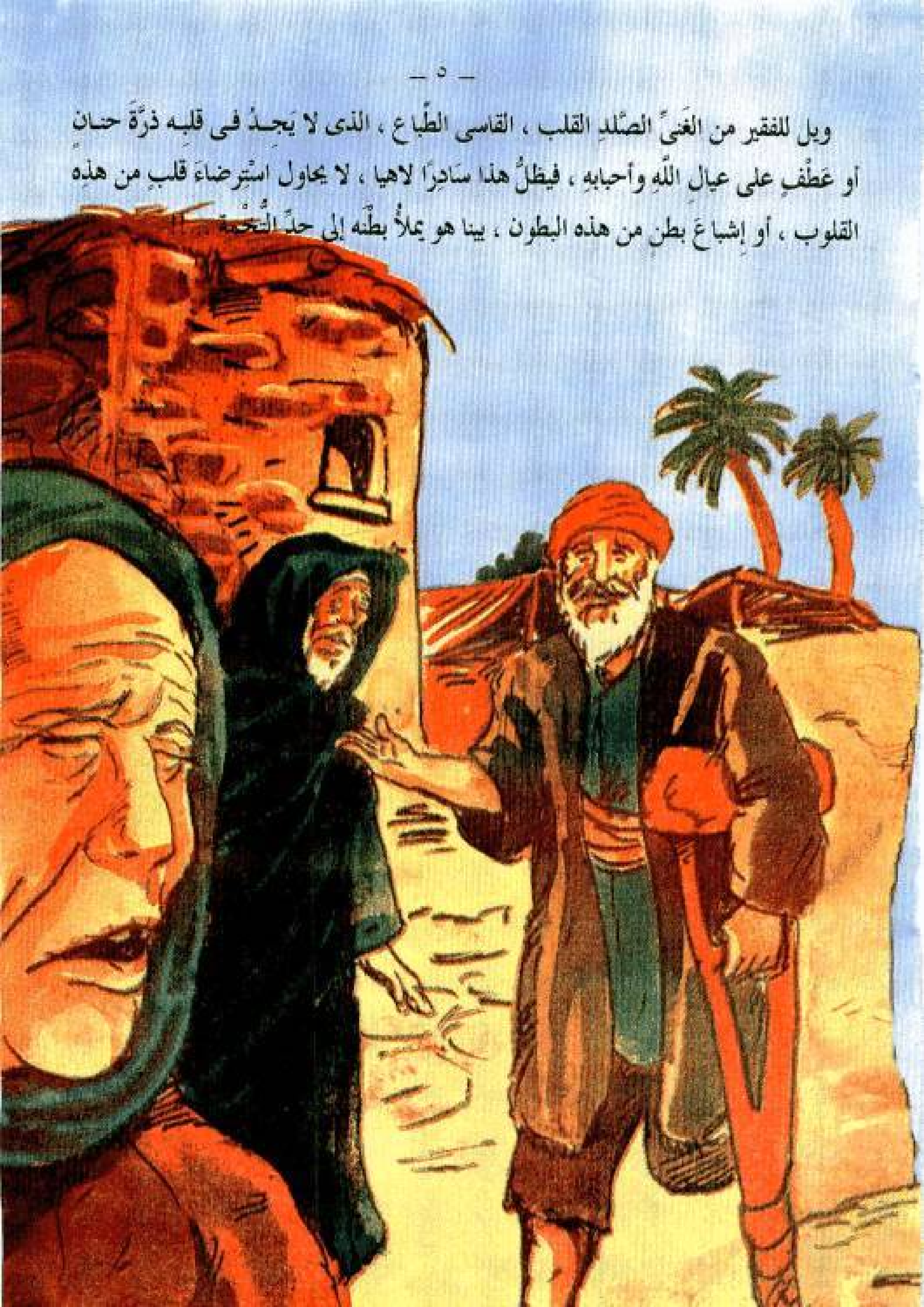
لم تَلبَثْ عائِشَةُ رضِيَ اللّهُ عنهَا ان قامتْ مِن فورِها حينما جاءَهَا النبأ .. وقد تهلَّلَ وجهُها بالفرحِ والسُّرور ، وشمِلهَا نوعٌ مِن الغِبطةِ وانْشِراحِ الصَدْرِ .. لَقدْ كانَتْ فى ذلِكَ الحينِ كتلةً مِنَ النَّشاطِ الغَامرِ والحَركَةِ المتّصِلةِ التى لا تَهدأ ، ولا تَنى عَن القَفزِ هُنا وهُناك ..

إنّه النَّبأُ الحبيب .. إنّها مِائَةُ ألفِ دِرهمٍ نَصِيبُها مِنَ العَطاء .. إنّها ستودِعُها خزانةً لا يُمكِنُ أن يصلَ إليها أحدٌ مِن اللُّصوص ، أم مَرَدَةِ الشَّياطِين .. ستحفَظُ بها فى المكانِ الحصينِ الذى تربو فيه الأمْوال ، وتتضاعفُ مِئاتِ المرّات .. ستُنفقُها على عيالِ اللهِ وأحبابِه ، على الفقراءِ والمساكين ..

لقد كانتْ عَائِشةُ رضِيَ اللهُ عنها صائمةً فى ذَلكِ اليومِ ، وجاءَ إليها المال ، فأخذت تُفرِّقُه على أهْلِه وأربابِه ومُستحِقّيه .. على هؤلاءِ الفُقراءِ والمساكين ، الَّذين لا يجدونَ الكَفافَ من العَيش ، ويَظلُّ أحَدُهم طَوالَ يومِه يقْطَعُ الطَّريقَ جيئةً وذُهوباً يتسكّعُ هنا وهناكَ دونَ أن يَجِدَ عَملاً يَحصُلُ مِنْه على ما يَكفِيه وأولادَه ، ويَقيهِم شرَّ الحاجة ، وألَم الضَّنَى ، ومَذلَّةَ السؤال .. !

هؤلاءِ قومٌ يجبُ أن ينظُرَ إليهِم المسلمون ، فيُعطيهم كلُّ إنْسانٍ ما أوجَبَهُ اللّهُ عليه ، وكلّفهُ بإخراجِه لأولئك المحتاجيَن البُؤساءِ ... إنّ كلَّ مُسلمٍ لو فعَل ما كلّفهُ اللّهُ ، وأمرَهُ بإخْراجه ، لما وُجِد فَمٌ مِنْ هذِه الأفواهِ المحرومة ، ولا بَطْنٌ من تلك البطونِ الجائعة .. !!

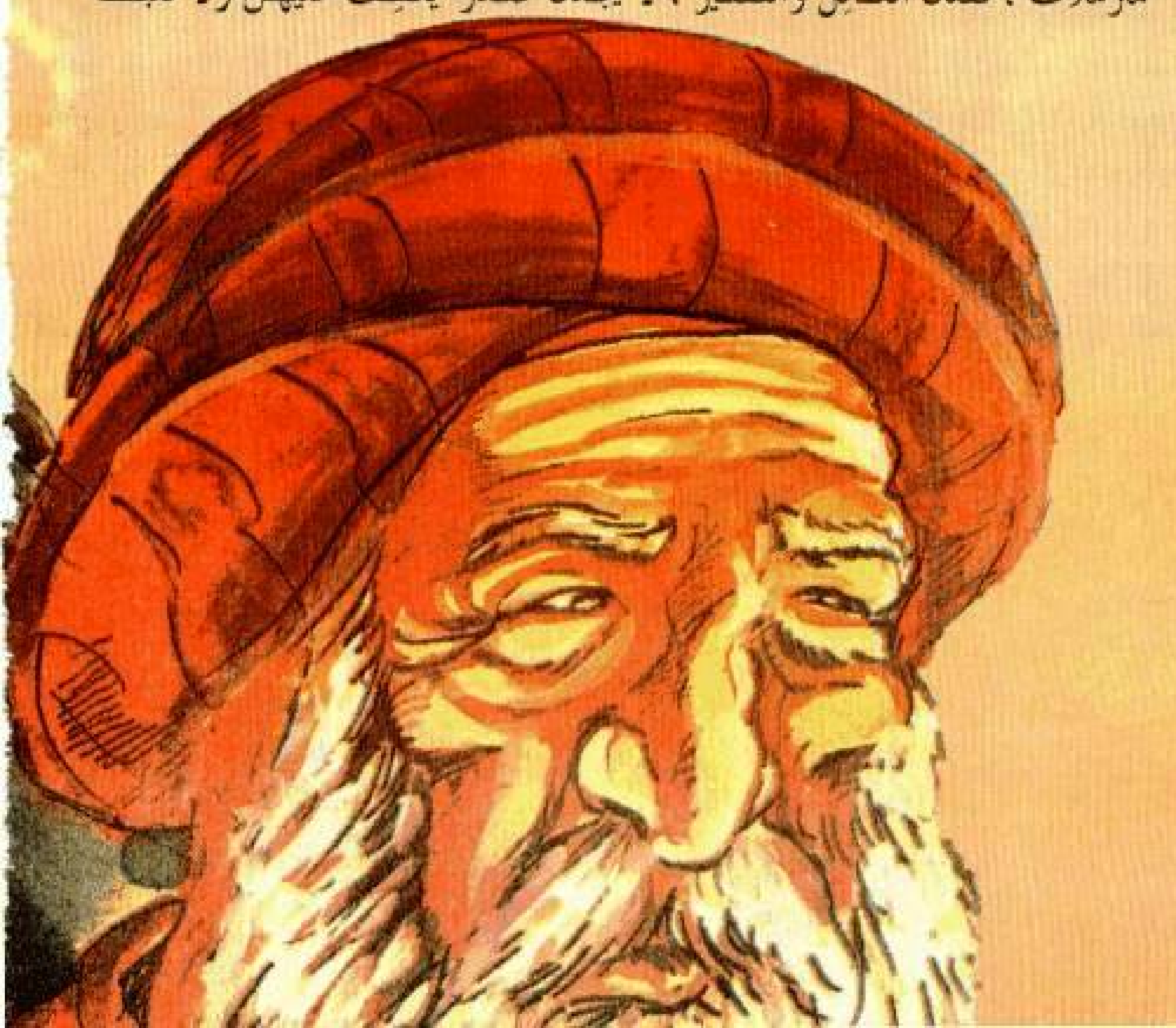


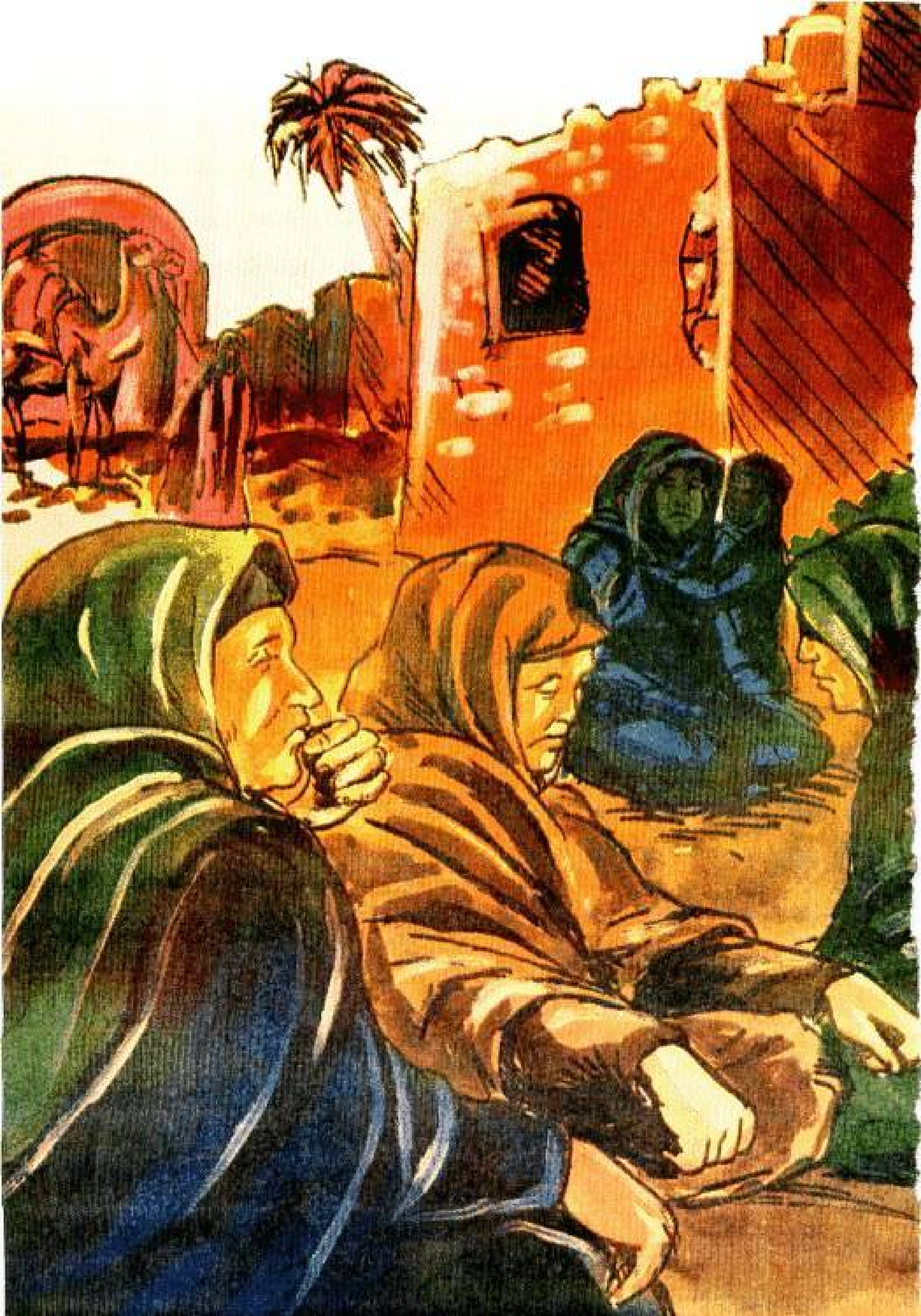


ويل للفقير من الغَنيِّ الصَّلدِ القلب ، القاسى الطِّباع ، الذى لا يَجدُ فى قلبه ذرَّةَ حنانٍ أو عَطْفٍ على عيالِ اللهِ وأحبابِهِ ، فيظلُّ هذا سادِرًا لاهيا ، لا يحاول استِرضاءَ قلبٍ من هذه القلوب ، أو إشباعَ بطنٍ من هذه البطون ، بينا هو يملأُ بطنَه إلى حدِّ التُّخْمة .

وشغلتْ عائشةُ بهؤلاء الفُقراء عن نَفْسِها ، ونَسِيَتْ ذلكَ الإجْهادَ المُميت ، وأنّها خاويةُ البطنِ تبيتُ أكثرَ اللّيالى مع رسولِ اللّهِ ﷺ على الطّوَى ، لا تَشْبَعُ مِن طَعامٍ أو شَرابٍ ، ولو شاءتْ لشَبِعتْ ، وملأتْ البطْنَ وباتتْ مُتخَمة ..

وكانتْ تَشْعرُ بلَذّةٍ ليس وراءَها لذّة ، وهى تَرَى هؤلاءِ المساكينَ يتَناولونَ بأيديهمْ نَصيبَهمْ من المالِ ، وإنّ عواطِفَهم النّبيلةَ الّتى تفيضُ بشُكرِها على ما تُهدِيه لهم وتُعطِيه إيّاهُم لتقَعَ فى نَفْسِها موقعاً لا يُعادِلُه شيءٌ مهما كان الأمر .. هؤلاء رجالٌ .. شيوخٌ أضْعَفَتْهم الحاجة ، وعضّهم الفقرُ بنابه ، وكهولٌ أقْعَدتْهم الحاجَةُ والمرض ، وأذَلّهُم السُّؤالُ والطلب ... وهؤلاء نِسوةٌ مُتَرَمّلات ، فَقدنَ العائِلَ والنّصير ، لا يجِدن صدْرًا يَعطِفُ عليهِنّ ولا قلبًا

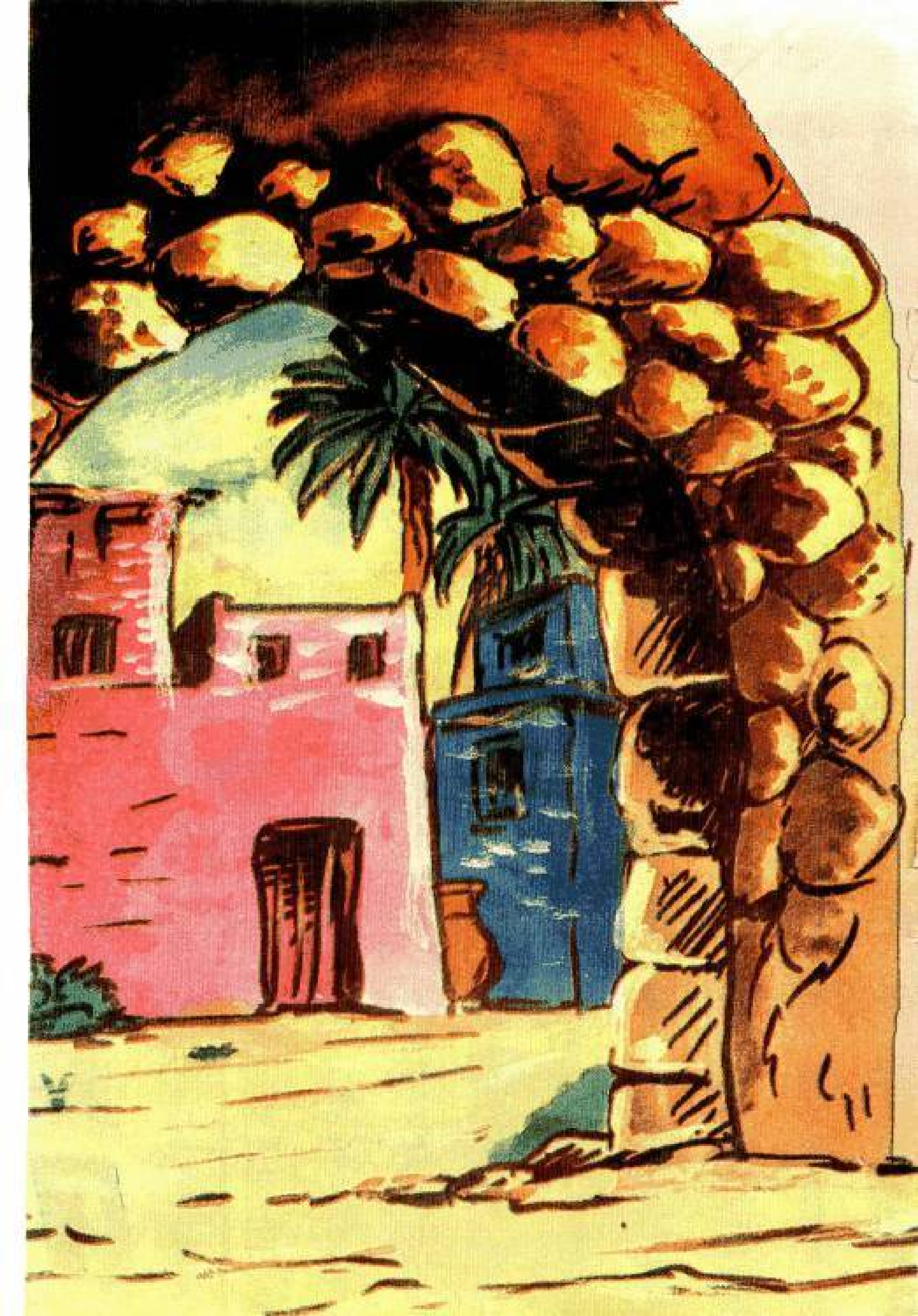




يُشفِقُ بهــنَ ، ولا فؤادًا يحنو عليهنَ .. ويجدْنَ فى هذهِ اليدِ الممتدةِ إليهنَ بالإحْسانِ والصَّدَقَةِ عطفًا ورحمةً ونُبلاً يعجزنَ عن تقديرهِ وشُكرِه ، ولا يجدْنَ سوى شيءٍ واحدٍ يعبِّرنَ به عَن بعضِ ما يَجدن ، ذلِكَ هو الدُّموع .. إنَّها لتفيضُ حينذاك فيضاناً هو دليلُ التّبجيلِ والتّوقيرِ والاحترام .. !

وإنَّ الدّموعَ من هذه العيونِ المقروحَة ، لتبعثُ فى القلبِ لوعةً وأسى ، ورثاءً وحَناناً .. وما أجملَ يَدِ أمِّ المؤمنينَ تمتدُّ بالعطاءِ الجزيلِ ، تأسو الجراحَ وتواسى المحتاج .. إنَّها مـلاكُ الرَّحمةِ ينشرُ على العِبادِ ألواناً مِنْ فيوضِ اللّهِ ونعمائِهِ الزّاخرة ، وما أَجْمَل العَونَ فى سبيلِ الخيرِ بَين الرِّجالِ والنّساءِ فى ذلك العهدِ الّذى تضافَرتْ قُوى الشّرْكِ فيه لتَخذُل الحقَّ وترفعُ لِواءَ الباطِل ، فَأبَى اللّهُ إلا أنْ يَرفعَ كلِمَتَه ، ويُعْلِى دينَه ، ويَجعلَ مِن هَذهِ الفئةِ المتواضعَةِ المتعاونَةِ فى الحقّ - بهِ تَحيا ، وفى سبيلهِ تَموت - أمةً تبعثُ الحياةَ فِى مُواتِ العالَم الذى نَسىَ الضَّعيفَ وجَحدَ حقَّ الفقيرِ والمِسكين ، فارتفعت المادّيّةُ وأَصبحَت لها مَنْزلةٌ مُحترمةٌ ، ومَكانةٌ معروفةٌ .. ثمَّ عاشَ الفَقيرُ والضَّعيفُ فى زَوايا النّسيانِ على فُتاتِ الموائِد ، يَحيا حياةً تأباها البَهائِمُ الرُّتّع ، ومعَ ذَلِك فهو لا يُمكِنُه أن يرفعَ صوتَه أو يقولَ كَلِمَتَه .. !!

فلينظر العالمُ الموبوءُ الآن .. فَلينظُرْ العالَمُ الذى يُحاولُ أن يَجدَ الخلاصَ ممَّا فيه - فلينظُر إلى عائشَةَ أمِّ المؤمنينَ وهى صائِمةٌ تُفرّقُ مائةَ ألفِ دِرهَمٍ وهى فى أشدِّ الحاجَةِ إلى دِرهمٍ واحدٍ منها ، تُفرِّقُها كلّها فى سَبيلِ اللّهِ لا تُبقى منها شيئاً لنَفْسِها .. !!



يا لله ! .. لقد وقفتْ خَادِمُ عائشَة أمّ المؤمنين تَعْجَبُ لهذا الإيمان وذلك الإيثار ، إنّها لم تجد لها مَثيلا أبداً بين النّساء .. لقد نَسيتْ سَيِّدتُها عائشةُ نَفْسَها .. إنّها صائمةٌ وهي كذلك صائمةٌ مِثلُها ، وإنَّ الجوعَ يكادُ يَفْتِكُ بها فتكًا ذريعاً ، ولكن أنّى لعِائشةَ أن تأبَه بالجوعِ يُفنِيها ويُرهِقُ أعصابَها ، ما دامت تُشبِعُ البُطونَ الجائعةَ ، وتكسو الأبْدانَ العارِيةَ . وتُفْرِحُ القلوبَ الحزينة ، وتأسو الأفئِدةَ الجريحة .. !!

إنها وزَّعتْ مِائَة ألفِ دِرهَم في يوم .. وَها هي ذِي الشَّمسُ كادتْ تَغرُب ، وها هي ذي سَيِّدتُها قد نَفَضَتْ يَدَها مِنْ ذلك المالِ الذي لا تَجدُ فيه لَذَّةً أو مُتعةً كما يجدُ النّاس .. سواءً لديها أجاءَ أم ذَهَب ـ هو فقط طريقٌ إلى الآخِرَة ، يُدَّخَرُ هُناكَ يومَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنون ... ولكن ما معنى هذا ؟.. أمعناهُ أن تبقى جائعةً لا تجدُ ما تُفطِر به ؟.. لقد وجَدَتْ في نَفْسِها الشَّجاعة الكافِيةَ لتُصارِحَ سيِّدَتها بهذا الأمر ، فربَّما احتاطتْ سَيِّدَتُها وعمِلت ما يَضْمَنُ لَهما الإفطار .

قالتْ الخادِمُ في أدبٍ ولُطفٍ :

ـ ما استطعتِ فِيما فرَّقْتِ اليومَ أن تَشترى لنَا بدِرهم لحمًا نُفطِر عليه .

وكأنّما وقَعَتْ هذه العِبارةُ مِن السيِّدةِ عائشَةَ موقعاً مؤثّرا ، جعلها تَستَفيقُ من حُلْم .. حقًا .. إنّها فرَّقَتْ مِائَةَ ألفِ دِرهم ، ولم تُبقِ شيئاً لها ولخادِمها .. يا لله ،



لقد أنساها عِيالُ اللهِ وأحبابه نفسَها فما عادَتْ تذْكُرُ نَفْسَها الَّتى بين جنبيها .. ولكنَّها تَقدِرُ أنْ تَصبِرَ على ألمِ الجوع ، بلْ ترَى فى هَذا مِنَ الرَّاحةِ المعنويَّة ، والنَّعيمِ الرّوحى ما يُعوِّضُها عن كلِّ ما فَقَدتْ ، فما بالُها تَنْسَى هذه الخادِمِ ؟! .. وكأنَّما أحسَّت مِن عبارةِ الخادِمِ ريحَ العِتابِ واللَّومِ ، فاستيقظتْ فى نَفسِها طبيعةُ الدِّفاعِ عن النَّفس فقالتْ لها على الفوْرِ فى شىءٍ من الدُّعابةِ والظَّرف :

لو ذكَّرتنى لفعلت .. !!

فصَمتَت الخادمُ لأنَّها عَلِمت أنَّها هى الأُخرى نَسِيتْ نفسَها فى سَبيلِ اللَّه .



ثوب الخليفة..!



أنْصَتَ النّاس لعمرِ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللّه عنهُ وهو يتحدث.. وكأنّما على رءوسِهِمُ الطّيرُ ، لا خوفًا أو رهبةً من الرجلِ العظيمِ ، الّذى يكادُ يزِن الدنيا زهدًا وورعاً ، وتقوى وإيمانًا ، فما عَوّدَهُم ذلِكَ على الرّغمِ من شِدّتهِ فى الحقّ ، وصولتِهُ وسطوتهُ فى حُدودِ الدّين ـ وإنّما أنصتوا إجلالاً واحترامًا للرّجلِ الّذى يضعُ الأمُور فى نِصابِها ، ويَعرفُ لكلّ شىء قدْرَه ومنْزلَته ، فلا ظُلمَ ولا غدرَ ، ولا خيانةَ ولا جَوْر ، ولا مُحاباةَ تطغَى على حقوقِ الناسِ وتُضيّع علَيْهم جهودَهم وأموالَهُم .. واعتقَدَ كلُّ إنسانٍ أنّ قولةَ الحقّ سينطلقُ بها لِسانُ عمرَ رَضِىَ اللّهُ عنهُ عمّا قريب ، وأنه سيُفَصّلُ الخطّةَ الّتى يُريدُها لنفسِهِ ، ويريدُها للناسِ ، ويُريد أن يَحمِلَ النّاسُ عليْها رَضوا أم سخِطُوا ، ما دامَ يؤمِن بصلاحِ هذهِ الخطّةِ إيمانًا يفيضُ بنورِ اللّهِ ، ويتضوّأ بضياءِ الحقّ ، سامى الغايَةِ ، رفيعُ الغرضِ .

وارتفعَ الصوتُ حازِمًا قويًّا يتردّدُ صَداه بين هذهِ الرّحابِ الطّاهِرَةِ التى لم تعرفْ أفْضلَ مِنْ هذا الدّينِ ، ولا أرْوَعَ وأخْيرَ من رجالِهِ وأهلِهِ ، قال : « ألا أُخْبِرُكم بما أستحلّ من مالِ اللّهِ تعالى ؟ » .

واسْتطالَتْ الأعناق وشخَصَت العيونُ ، وطرقَ هذا السؤالُ آذانَ النّاسِ فى وضوحٍ وإشراق ، فما أمسّ حديثَ المادّةِ بالنّفس ، وما أقربَه إلى كلّ فؤادٍ ، فهُوَ أعوَنُ شىءٍ للمفْسِدِ ، وأقْوى سلاحٍ للمطيعِ ، وما أحوجَ الأمّةَ الإسلاميّة إليه فى هذا الظرفِ القاهِرِ الحرِجِ ، وهى على أبوابِ الفتوحِ ، وطرق هذه الميادين الرحيبَة ، التى تمتدُّ إلى بلادِ الرُّومِ والفرْسِ . وتفتحتْ القلُوب قبلَ الأسماعِ ، وأرهفَت الآذان ، واعتقدَ كلُّ إنسانٍ أنه لا بُدّ سيكون له مِقدار من المالِ يكفيهِ ، ويحفظ له هيبته كخليفةٍ لرسول اللّه ﷺ .. يكونُ له كراتِب من بيتِ مالِ المسلمين نظيرَ إدارتِه لشئونِهم ، ورعايَتِهِ أحوالَهُم ، وحِرْصِه علَى مصالِحَهُم .. بيد أنّ حياةَ عمرَ يجب أن تنفسح قليلاً عمّا كان عليه رسُول اللّه ﷺ من الضّيْقِ والعُسْر ، والزُّهدِ فى هذهِ الحياةِ .. يجبُ أن يكونَ لهُ من الجاهِ والعظمةِ ، والمجْد والخدَمْ والحشَم ، ما يقعُ إلى حد ما موقعًا يماثِلُ حياةَ كِسرى ، ونعيمَ قيصر .. يجب أن يكون للإمبراطوريّة الإسلاميّة الفَتِيّة القويّةِ ، التى تقومُ على هذه السواعِدِ الشابّة ، التى تفيضُ إيمانًا ووفاءً ، وإخلاصاً للحقّ ونصرته ـ مظهرٌ سام ، ليسَ فيه بذخٌ



ولا إسراف ، ولكنّه فى حدودِ الاقتصادِ والتحشُّمِ والوقار .. ولكن صوتَ عُمرَ قطعَ حبلَ هذه الأفكارِ ، وأرجع الناسِ إلى الواقعِ الذى لا شكَّ فيهِ .. إلى الحقِّ الصراح ، حينما أجابَ هو على ذلكَ السُّؤال ؟

« حُلّتانِ لشتائى وقيْظى[١] ، وما يَسعُنى من الظَّهر[٢] لحِجّى وعُمْرَتى ، وقوتى بعدَ ذلكَ كقوتِ رجلٍ من قريش ، لستَ بأرفعهم ، ولا بأوضعِهم » .

وهمهم الناسُ بالتكبيرِ والتهليلِ ، وتطلّع بعضُهُم إلى بعضٍ ، وقد عقدَتْ الدّهشةُ ألسِنَتَهُم ، وسبَحُوا فى خضم من النُّورانيّة الروحانيّة التى تسمُو عن الماديّات ، ورَأوا فى عُمرَ الخليفةَ العادِلَ الذى لا يأبَهُ بمظاهرِ الحياةِ ، وزخارف الدُّنيا ، القائد الأوّل لهذهِ الكتائب الإسلاميّة التى تَضْربُ فى ظلامِ الحياةِ ، تنيرهُ للناسِ ، وتوضّح لهم الطّريق الحق ، فى صرامةٍ وعزمٍ .

لكَ اللّه يا عُمر !.. حُلّتانِ فحَسْب ؛ حلّةٌ لبردِ الشتاء القارس ، وأخرى لقيْظِ الصيْفِ الأليم ؟.. إن الرّجلَ العادِىَ مِنَ الناسِ لا تكفيهِ هاتانِ الحلّتان ، فكيفَ باللّهِ يكتفى خليفةُ المسلمين بهاتَينِ الحلّتَين ؟ ولكنّ عمرَ بنَ الخطّاب .. يعرف قيمةَ المالِ يُستغَل فى رفاهيّةِ الأمّة بأسرِها ، لا لرفاهيّة الخليفةِ وأسرته .. ما أبعدَ الناس عن طريقِ الخيرِ ، وسبيلَ التُّقى والصّلاح .. لقد وضعَ عُمرَ بهذا الدّعامة الأولى لحياةِ الرّجولَةِ الجادّةِ فى بعدِها عن الزّيناتِ والكماليّات ، والنظر إلى الجوهَرِ واللباب ، دون القِشرِ والمظهرِ الخلّاب .. !!

ثم ماذا ؟.. ثم ما يكفيهِ من الإبلِ لحجّه وعمرته .. أما الرّفاهيةِ والنّعيم وما زادَ عن الحاجَةِ الماسّة ، فلا حاجةَ لهُ بهِ ، ولا حظَّ لـه فيـه ، فهوَ لا يجد وقتًا لنفْسِهِ وحاجاتِ نفْسِهِ ، وهو لا يجد فِكرًا يتّجهُ بهِ إلى مصالحِهِ الشخصيّة ومتعةِ بدنِه ، وإنّما ملكَتْ عليه مصالحَ المُسلمين ومطالبهُم كلَّ وقتِهِ وفكْره وجهدهُ ، فهوَ لا يعيشُ لهذهِ النفس التى بين جنبيهِ ، وإنما يعيشُ للناسِ جميعاً ، للمسلمين عامـة ، يأسُو الجراح ، ويداوى المرْضى ، ويُواسى الحزين .. ويلقى بنفسِهِ فى الميدان مجاهدًا مدافعًا عنْ دينِ الإسلامِ دينِ اللهِ ،

---

(١) القيظ : حر الصيف . (٢) الإبل أو الراحلة التى يحج أو يعتمر عليها .

دينِ الحق ، مخاطرًا بكلِّ ما يملكُ من قوى وسُلطان .

وهو لا يرى نَفْسَه أرفعَ مِنْ أفرادِ المسلمين وأوساطِهم . فلا حَاجةَ بِهِ إذن لطعامٍ خاص ، يَعملُ له يطبخُه ويشويه ويُحمِّرُهُ ، ليتميَّز به بينَ الناس ..

ولكنْ عمرَ صمتَ قليلاً ، وصمتَ الناسُ لصمتِهِ ، لقدْ كان يُفكِّرُ في شيءٍ يُريد أن يقولَه ، فماذا يُريد يا ترى أن يقُول ؟ وأخيرًا انطلقَ الصّوت في حيرةٍ وارْتباك وإشفاق :

« فو اللّه ما أدرى أيحِل ذلِك أو لا ؟ » .

سبحانَك اللهم .. خليفة يلِى أمرَ المسلمين يضَع لنفسِهِ هذا المنهاجَ الذِى لا يَكادُ يفرق بينَه وبينَ الأفْراد المتوسِّطِين من المسلِمين ، ولا يَكادُ من يَرى حياتِه ومظهَره أن يَرى شيئًا غريبًا أو عجيبًا ، ومعَ هذا ، فهُو فى شكٍّ من هذا المنهاج ..!!

إذن فماذا يُريدُ أن يكون ، وما الحلالُ إن لم يكُن هذا هوَ أحلَّ الحلال ؟.. إن ما انتوى أن يأخُذَه عُمر من بيتِ مالِ المسلمين لا يتجاوز أن يكُون نفقةً لبيتٍ مُتواضعٍ جدًا من بيوتِ المسلمين ، فلِم الحرَج إلى هذا الحدّ يا خليفةَ الرّسول الكريم ؟.. أشرقْ علينا بنورِك يا عُمر ، خليفةٌ يداوى القلوب ، ويُنيرُ الأفئِدَةَ ، ويجلُو الصُّدور .

وهكذا فاضَتْ أحاسِيسُ النّاس ، وكلّهم يرَى عُمرَ بن الخطّاب مُضيِّقًا على نَفْسِه وعَلى أولادِهِ خَشيَةَ أن يكونَ قد أخذَ من بيتِ المالِ أكثرَ مِنَ الحاجةِ .. ولكنّ هذهِ المشاعِر كلّها مقترنَة بالإعجابِ والتقديرِ ، والإعزاز والحبّ ، ورفعة القَدر ، وسموّ المنزلة ، وما أجملَ هذهِ الصلاتِ بينَ خليفةٍ وشعبٍ ، وما أقْوى هذهِ الأواصرِ بين حاكمٍ ومحكُوم .. وما أعجبَ هذا المنهاج القصير الواضح ، الّذِى لا يحوطه شيء من الغموضِ ، ولا تشوبَه شائبة من التغريرِ أو التضليل .